Majallah Al-Qism Al-Arabi
University of the Punjab,
Lahore - Pakistan.
No.24, Issue: 2017

مجلة القسم العربي
جامعة بنجاب، لاهور– باكستان.
العدد الرابع والعشرون، 2017م.

دور التصوف في الأمن والسلام الاجتماعي

محمد الطاف*

الدكتور أبوبكر**

Abstract

The Sufism is based on two major concepts: the love of Allah and equality among mankind without any distinction of race, creed, territory and sect. This paper deals with the role of Sufism in social security and universal peace. The etymology of the term "*sufi*" and "*tasawwuf*" has been explained in the start of this paper in the light of the opinions of sufi pioneers. The concept of peace and security and its importance for human race in the light of Holy Quran and *Sunnah* has also been briefly described. The prominent Sufi personalities in every era have been staunch advocates of peace, harmony, tolerance and love of humanity. The doctrine of Sufism "an all-embracing love of everything and respect for everyone" is intended to bring about an all-enveloping harmony in which every single body - animate and inanimate - is able to live and interact together for the long term benefit of all. There is no place for inequality or greed in the world of Sufism and

---

* المحاضر، قسم اللغة العربية، جامعة بنجاب، لاهور.

** الأستاذ المساعد، قسم اللغة العربية، جامعة بنجاب، لاهور.

certainly no place for warfare. The real Sufi principles of peaceful coexistence (originated from the teachings of Holy Quran and life of Holy Prophet) can wield the various social sections of human race having different economic and political benefits, in single community. The miserable problems of our existing world, due to lust of more wealth, more power and surmounting over others, are the direct result of human greed. And these problems can be tackled by the sharing and caring qualities of Sufism, if and when they are correctly promoted and practiced.

التصوف:

إنّ العلماء والصوفية تناولوا التصوف بتعريفات شتى تزيد على المائين، وقد جمع منها المستشرق الإنكليزي الشهير رينولد نيكلسون (ت1945م) ثمانية وسبعين تعريفا من مصادر مختلفة[1] وعلق على تعددها وتنوعها بقوله: "وكذلك حال الذين يعرضون للتصوف بالتعريف، لا يستطيعون إلا أن يحاولوا التعبير عما أحسته نفوسهم، ولن يكون تعريف مفهوم يضم كل خفية من الشعور الديني المستكن لكل فرد، ما دامت هذه التعريفات، على أية حال، تصور باختصار لائق لبعض وجوه التصوف وخصائصه"[2]. ونقدم بعض الأقوال في تعريف التصوف هنا.

إنّ السراج الطوسي (ت378هـ) يعد أول المؤرخين الذي بحث عن أصل التسمية بالصوفي، فقد عقد لها بابا بعنوان: "باب الكشف عن اسم الصوفية، ولم سمّوا بهذا الاسم، ولم نسبوا إلى هذه النسبة"[3] وفيه يذكر أن هذه التسمية مأخوذة من لبس الصوف اقتداءً بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم والأولياء الصالحين. و من الواضح أن هذا تعليل مأخوذ من صفة اللباس و هو يخص الشكل.ثم يقول الطوسي عن ذكر الحواريين في القرآن وسبب تسميتهم بهذا الاسم: "وكانوا قوما يلبسون البياض، فنسبهم الله إلى ذلك ولم ينسبهم إلى نوع

من العلوم والأعمال والأحوال التي كانوا بها مترسمين....". فامتازوا عن غيرهم من سائر أتباع المسيح بهذه التسمية.[4]

و الرأي الثاني في تسمية الصوفي والتصوف يقول إن التصوف مشتق من الصفاء أو من أهل الصفة، فنصل إلى أن الأمر لا يستقيم من جهة الاشتقاق اللغوي، ولكنه يستقيم من جانب المعنى، فالصفاء من تصفية النفس من كدورات البشرية، وأهل الصفة بعامة كانوا مقيمين على تحقيق هذه الخصلة في نفوسهم. وما تجدر الإشارة إليه أن مثل هذه الكلمات المؤهلة لأن تكون أصلا اشتقاقيا للتصوف أكثر من غيرها، تشترك في حرفين على الأقل همات الصاد والفاء مع مادة "صوف". وأما المدلولات فمتشابهة، وبما أن التصوف يشتمل على معنى الصفاء، وصفة أهل الصفة، وبه يستقيم الاشتقاق لغويا من مادة "صوف"، وفي ضوء ما تقدم من تحليل، فإن اشتقاق التصوف من الصوف هو الراجح، وهو الرأي الذي يطمأن إلى صحته، والآراء الأخرى مرجوحة[5].

قال معروف الكرخي (ت200هـ): التصوف هو الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق"[6] مشيرا في جزئه الأول إلى طبيعة الجانب المعرفي للتصوف، وهو معرفة حقائق الأشياء وجواهرها، وعدم الاكتفاء بما تعطيه ظواهرها. أما الجزء الآخر من التعريف فيشير إلى مقام الزهد، وهو التخلي عما في أيدي الناس من أملاك رغبةً في الله تعالى. وبمثل ذلك يقول ذوالنون المصري عن الصوفي: "الصوفي من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق، وإن سكت نطقت عنه الجوارح بطقع العلائق"[7].

فإن أبا الحسن الحصري (ت371هـ) يقول: "الصوفي من كان وجده وجوده وصفاته حجابه"[8]. وقال عمرو بن عثمان المكي (ت291هـ): "التصوف أن يكون العبد في كل وقت مشغولا بما هو أولى في الوقت"[9]. وقال أحمد الجريري (ت 304 هـ): "التصوف مراقبة الأحوال ولزوم الأدب"[10]. وقال أبو بكر الشبلي (ت 334هـ): "التصوف ضبط حواسك ومراعاة أنفاسك"[11].

وأحسن ما قال زبدة السالكين الجنيد البغدادي (ت297هـ) عن التصوف : "هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به"[12]. قد أنشد

أبو الفتح البستي (ت400هـ) أبيات في معناه المأخوذ من الصفا[13]:

تنازع الناس في الصوفي فاختلفوا قدما وظنوه مشتقا من الصوف

ولست أنحل هذا الاسم غير فتى صافي فصوفي حتى لقب الصوفي

وقد تضاربت الأراء في اشتقاق التصوف و كثر الخلاف في مصادره. ولقد كان الصوفية الأوائل، ولا سيما المعينون بتأريخ التجربة الصوفية، فاستخرجوا من مصدري التشريع الإسلامي، الكتاب والسنة، ما يؤكد شرعية التصوف، وانتماءه الأصيل للإسلام. و ذهب الطوسي إلى تقييد التصوف بأربعة أصول إسلامية، وهي: الأول- متابعة كتاب الله عزوجل، والثاني- الاقتداء بالرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والثالث- التخلق بأخلاق الصحابة والتابعين، والرابع_التأدب بآداب عباد الله الصالحين[14].

و اتفق ابن خلدون(ت808هـ) مع قول الطوسي في الصلة الوثيقة بين التصوف و مصدره الإسلامي، فيقول: "هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة. وأصله أن طريق هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة، وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، طريق الحق والهداية. وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة. وكان ذلك عامّاً في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالفة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة"[15].

وقال الجنيد: "الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام"[16]. وقال: "من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، لا

يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة"[17]. وقال الكرماني (ت300هـ): "من غضّ بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمّر باطنه بدوام المراقبة، وظاهره باتباع السنّة، وعودة نفسه أكل الحلال، لم تخطئ له فراسة"[18].

مفهوم الأمن:

الأمن: عدم توقع مكروه في الزمان الآتي[19]. وأَصْلُه طمأْنِينَةُ النَّفْسِ وزَوالُ الخَوْفِ[20]. قد وردت كلمة الأمن وما يشتق منها في القرآن الكريم في مواضع عديدة، وذلك بالمعنى الذي نحن بصدده، وهو الأمن الذي يعني السلامة والاطمئنان النفسي، وانتفاء الخوف على حياة الإنسان، أو على ما تقوم به حياته من مصالح وأهداف وأسباب ووسائل، أي ما يشمل أمن الإنسان الفرد، وأمن المجتمع.

يقول الله تعالى:

- ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾[21]
- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾[22]
- ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾[23]
- ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[24]
- ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾[25]
- ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[26]
- ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[27]

مفهوم الأمن في المجتمع المسلم إن الفطرة الإنسانية تقتضي الاجتماع، ومتى وُجد جماعة من الناس، تَعين أن تقوم فيهم سلطة حاكمة ترعى مصالحهم، وتعمل من أجل بقائهم وتقدمهم، وتحجز بين أفرادهم حين تختلف المصالح. فإن

الأمن يعتبر من أهم مطالب الحياة، بل لا تتحقق أهم مطالبها إلا بتوفره، حيث يعتبر ضرورة لكل جهد بشري، فردي أو جماعي، لتحقيق مصالح الأفراد والشعوب[28].

السلام:

السلام فى اللغة العربية من مصدر (س ل م) ويستعمل اسما بمعنى الأمان والعافية والتسليم والسلامة والصلح. وهى تعنى السلم ، والسلام والسلامة، والتسليم والاستسلام والصلح والبراءة من العيوب والسلامة من كل عيب والكثير من المعانى الإيجابية الأخرى. كما يقصد بالسلم أو السلام بأنه حالة من التوافق تتحقق بين طرفين إذا توافر الإنسجام وعدم وجود العداوة [29]

والسلام فى الاصطلاح لا يخرج عن هذا المعنى اللغوى وإن خُصص فى كل ما يحقق الأمن والأمان. وتشير الأدبيات إلى المعنى الاصطلاحى للسلام، بأكثر من تعريف.فقد اتسع مفهوم السلام من السلام السلبى(أى غياب الحرب والنزاعات والصراعات) ليشمل السلام الإيجابى (أى غياب الاستغلال ، وإيجاد العدل الاجتماعى) وهناك علاقة ارتباطية بين السلام السلبى والسلام الإيجابى .

الأمن والسلام الاجتماعي

ويحتاج المجتمع الإنساني إلى الأمن الاجتماعي، وهو تعبير حديث، لكنه يعبر عن معنى إسلامي، وهو أن يكون المجتمع المسلم، كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضا. ونجد هذا المعنى واضحاً أشد الوضوح في الحديث الشريف:

﴿مثل المسلمين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى﴾[30].

وقد أمر الله المؤمنين بالتعاون على البر والتقوى، ونهاهم عن التعاون على الإثم والعدوان.يقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[31]

إن الأمن والسلام معنى شامل في حياة الإنسان، ولا يتوفر الأمن للإنسان بمجرد ضمان أمنه على حياته فحسب، فهو كذلك يحتاج إلى الأمن على عقيدته التي يؤمن بها، وعلى هويته الفكرية والثقافية، وعلى موارد حياته المادية.

التصوف والأمن والسلام الاجتماعى:

إن التصوف الذي يرتكز على إرث دينى يهدف إلى إشاعة المحبة ونشر السلام والنأى بالمجتمعات عن التنازع إبتداءً لأنه معول هدم يفضى إلى الفشل وذهاب الريح . وهذا بالضرورة يتنافى مع مبادئ وأهداف الصوفية التى تعمل لأجل الأمن والسلام الاجتماعى. ويقول أحمد غاني:

"إنَّ الطرق الصوفيَّة أحد أهم أركان قواعد بناء المجتمعات الآمنة فى نفوسها وفى أهلها وفى سربها ، حتى تتفكر فى خلق السماوات والأرض، وتحقق قيمة العبوديَّة الحقَّة والخالصة لله رب العالمين، وتقوم بواجب التبليغ والدعوة بالحُسنى والموعظة الحسنة، وهذا ما لن يتحقق فى ظل التنازع".[32]

إن للصوفية و الطرق الصوفية الدور الأكبر فى تعزيز قيمة الأمن العالمي والسلام الاجتماعى بالكثير من الوسائل التى قد تتاح لها أكثر من الحكومة، وبوسائل ومجالات مختلفة.إن الطرق الصوفية وحلقاتهم فى العالم الإسلامي لعبت دورا هاما في تعميق أسباب السلم والأمن الاجتماعى.كان شيخ الطريقة هو المرجعية لأهل المنطقة والحى والقرية ، ويتمتع بكلمة مسموعة فى جملة من القضايا كما كان له أثر كبير في النشاط الاقتصادى والسياسى والاجتماعى لمجتمع عصره[33]".

فمن المعلوم أنّ التصوّف نشأ من داخل الحركة الزهديّة التي كان من أبرز مميّزاتها الإعراض التامّ عن زخرف الدنيا وبهجتها، والإقبال بكُنْه الهمّة على الله، فلذلك تميّز أوائل الزهّاد بالتفرّغ للعبادة، وتقضية الحياة في التوبة والذكر والاستغفار، فتميّزت علاقتهم بالمجتمع بعدم التواصل. قد اختار أصحاب التصوف الإعراض عن هذا المجتمع المتوغّل في متع الدّنيا في شهواتها، وكأنّهم

يئسوا من إصلاحه، أو خافوا على أنفسهم من أن يجْرِفَهم تيارُه، فإذا بهم ينعزلون عنه ويقبلون على خاصّة أنفسهم، نادمين على ما اقترفوه من المعاصي وما اجترحوه من الآثام، مخلصين في التوبة، مجتهدين في الاستغفار، متحسّرين على الذنوب ولو كانت يسيرة. ولكنّ هذا الموقف –الذي يبدو في الظاهر استقالة تامّة، وهروبا من تحمّل المسؤوليّة الاجتماعيّة– يتكشّف لنا عند تدبّره أنّه موقف احتجاجيّ في باطنه؛ ذلك أنّ ممّا شجّع على ظهور الزهد وانتشاره ما عاناه المسلمون من عسْف الحكّام واضطهاد المستبدّين الذين يُمْلُونَ إرادتهم وآراءهم الدينيّة على غيرهم(34).

فكان الميل إلى الزهد مرتبطا بالثورة على السلطة؛ ولكنّها ثورة في غاية المسالمة، لم تخرج على الحاكم، ولم تُشْهِر سلاحا، ولم تمارس عنفا على الإطلاق، وإنّما قصارى ما لجأ إليه أصحابها –احتجاجا على ما ينكرون من حكومة ونظام– أنّهم أقبلوا على حياة الزّهد والاعتكاف، وكان الشعار الذي رفعوه هو "الفرار من الدنيا"؛ ذلك أنّه إذا نزلت بالناس قارِعَةٌ ارتدّوا بآمالهم في الغالب إلى ما كانت تتعلّق به قديما من صور أسمى من هذه الأرض وما عليها، ولذلك كان من أشهر تعريفات التصوّف أنّه "الأخذ بالحقائق واليأس من الخلائق"(35) ومن ثمّ تغلغلت حركة الزهد في نفوس صفوة من المسلمين نظروا إلى الحياة ومتاعها نظرة استخفاف واحتقار، ففرّوا ممّا يتعلّق به عامّة النّاس من المال والجاه والمنصب والسلطة، ولجؤوا إلى الكهوف والمغارات والمقابر، أو هاموا على وجوههم في الصحارى والجبال وسواحل البحار.

إنّ التصوّف في البدء كان تجربة شخصيّة تمحّضت فيها المسؤوليّة للذّات، لم يقبل عليها سوى صفوة من النّاس انكفؤوا على أنفسهم واستبطنوا ذواتهم وسعوا إلى القرب من مولاهم، فكان تصوّفهم أشبه بحركة نخبويّة، ثمّ صار منذ القرن الخامس للهجرة ظاهرة اجتماعيّة. ثمّ لم يلْبَثْ بداية من القرن السادس إلى القرن الحادي عشر أن اتّسع نطاقه وفشا في الأوساط الحضرية على وجه

العموم إلى أن صار منذ القرن الحادي عشر تصوّفا طُرُقيّا تحوّل إلى ظاهرة شعبيّة[36]. إنّ بعض العوامل التاريخيّة تفسّر ظهور هذه الجماعات وتَسَارُعَ تكوّنها. فمن ذلك المدّ الصليبي في الغرب، وتناقص الأراضي التي يسيطر عليها المسلمون في الأندلس بفعل سطوة الكاثوليك، والاجتياح المغولي في الشرق، وقد زعزع الشعور بالأمان في محيط سنّي قويّ ومتناغم نسبيّا، وتفكّك الخلافة العباسيّة الذي أسلم إلى تهاوي البنى الدينيّة التقليديّة، إذ استقْوَتْ سلطة شيوخ المتصوفة فنافست سلطة الأمراء وسلطة العلماء. وفي هذا السياق غذّت الطريقة الصوفيّة روح التكافل والتضامن وعزّزت الشّعور بالطمأنينة، واستطاعت بخانقاواتها ورباطاتها وزواياها أن تجمع النّاس حولها، وأن تمكّن الحياة الصوفيّة من عماد مادّي استفادت منه الطّرق الناشئة[37]. لقد كان ظهور الطرق الصوفيّة استجابة لحاجة البناء الروحي والاجتماعي في آن. هذه الحاجة لم يكن العلماء مؤهّلين لسدّها، فالفقهاء انغلقوا في دور حفَظَة الشريعة وضعُف تأثيرهم في المؤمنين، أمّا المتكلّمون فلا أثر لخطابهم في علاج أدواء النفس. ومن هنا برز شيوخ المتصوّفة ليحدثوا هذا التحوّل العميق الذي شهده التصوّف، نعني تطويره إلى مؤسسة تستجيب لحاجات جديدة للمجتمعات الإسلاميّة، فجعلوا نصب أعينهم تمكين النّاس من بناء علاقة شخصيّة حميمة مع الله ورسوله، واستطاعوا أن يوسّعوا دائرة المنتمين إلى جماعاتهم، فصار التصوّف منذ ذلك الحين قُطْبًا للإدماج الاجتماعي لا نظير له، حتّى لقد جاء زمن لا تَجِدُ فيه شخصا في أَيٍّ من البلاد الإسلاميّة لا ينتمي إلى طريقة من الطرق الصوفيّة أو يخضع لسلطانها بشكل أو بآخر[38]. نّ للطّرق الصوفيّة وظيفة اجتماعيّة تُفهم انطلاقا من تصوّر رسخ في التصوّف الطرُقي، فحواه أنّ الشيخ الصوفي يأخذ على عاتقه مسؤوليّة تلبية حاجات الجماعة، فذلك من مقتضيات الولاية قبل كلّ شيء. ولا يُتاح له ذلك إلاّ إذا تميّز بمجموعة من الصفات أهمها حماية النّاس، وتحمّل أعبائهم، وحلّ مشاكلهم،

ورعاية مصالحهم. وإنّما أُنيطت به هذه المهامّ لاعتقادهم بقربه من الله، فالولاية بهذا الاعتبار تقتضي الرعاية والعناية والحماية[39].

فكان للصوفي علاقة عميقة عريقة مع مجتمعه وأبناء عصره، فهو_ كما ذكره ذو النون المصري (ت245هـ)_ "عون للغريب، أب لليتيم، بَعْلٌ للأرملة، حَفِيٌّ بأهل المسكنة، مَرْجُوٌّ لكلّ كربة"، فقوله: "بعل للأرملة" يعني أنّه يُغْنيها عن فقدان زوجها بمساعدتها حتى لا تحتاج إلى مُعيل، أمّا الهشاشة والبشاشة فهما عنوان شخصيّته السمْحة الخالية من الكِبْر والعُجْب والتعالي، وهي صفات ذميمة معهودة عند ذوي الجاه والسلطان والمال في تعاملهم مع العامّة. إنّ من القيم الأخلاقيّة المطلوبة في الصوفيّ أن يتلطّف بالنّاس ولا يبغي عليهم، رُوي عن الجنيد قوله: "لا يكون العارف عارفا حتى يكون كالأرض يطؤها البَرّ والفاجر، وكالسحاب يُظلّ كلّ شيء، وكالمطر يسقي ما ينبت وما لا ينبت"، بمعنى أنّه يتعامل في منتهى اللطافة والسماحة مع الصالح وغير الصالح من عامّة الناس، إنّه يعمّ بخدمته الجميع بغضّ النظر عن أديانهم ومعتقداتهم، ويشمل بمعروفه من يستحقّه ومن لا يستحقّه[40].

وقد ذكر عبد الوهاب الشعراني (ت973هـ) أنّ من أخلاق الصوفيّة تقديم إنفاق الدراهم والدنانير في طعام الجائع وكسوة العريان وقضاء الديون التي لا يقدر أصحابها على الوفاء بها على بناء الزوايا والمساجد[41]. ونُقل عن عبد الله بن المبارك (ت181هـ): "لقمة في بطن جائع أرجح في ميزاني من عمارة مسجد"[42]. وهذا يدلّ على أنّ العبادة التعامليّة عند الصوفية مقدّمة على العبادة الشعائريّة.

وكان الصوفيّ يعالج أيّ خلل يراه في الناس دونما تشهير بهم أو تشنيع عليهم أو فضح لعيوبهم، يقصد إصلاحهم و يستر على نقائصهم ويخفيها عن الناس، وفي هذا المعنى قال حمدون القصّار (ت271هـ): "إذا رأيت سكران فَتَمَايَلْ لئلاّ تبغيَ عليه، فَتُبتَلَى بمثل ذلك"، ومقتضى هذا التوجيه أن تُظهِرَ من نفسك

العيب الذي تراه في غيرك، حتى لا تعتقد أنّك أفضل منه، وحتى تكون له عونا على مواجهة تعيير الناس له أو سخريّتهم منه، والمتصوّفة يصدرون عن حساسيّة حرجة تجاه هذه الأمور؛ لحرصهم على عدم إلحاق الأذى بالناس بسبب ما قد يَبْدُرُ منهم من أخطاء أو هفوات[43].

ولقد كانت صلة المتصوّفة بالفقراء في الحياة اليوميّة على غاية من الوَثاقة، فكانوا يختلطون بهم للاطّلاع على أحوالهم وتقديم العون إليهم، فقد رُوي عن عبد الكريم الجيلي (ت832هـ) أنّه كان يساعدهم على تنظيف ملابسهم من القمّل، ورُوي عن سفيان الثوري (ت161هـ) أنّ الفقراء كانوا في مجلسه كالسلاطين، وإذا بلغهم عن أحد الأغنياء أنّه متعبّد سَخِروا منه؛ ذلك أنّ عبادة الغنيّ عندهم توزيع ما زاد عن حاجته من الأموال على الناس. إنّ للصوفياء شعورا مرهفا بالمسؤوليّة عن البشر جميعا، فهم متّفقون على العمل من أجل إنقاذ البشر من الفقر والذلّ في الدنيا ومن العذاب في الآخرة. والبُهلول بن راشد يعْمَد إلى بيع طعامه عندما غلا السعر، ثمّ يشتري منه، وعندما سئل عن هذا السلوك المستغرب في مألوف العادة قال: "نفرح إذا فرح الناس ونحزن إذا حزنوا"[44].

ويقول ابن الطيب: "لقد كان ظهور الطرق الصوفيّة استجابة لحاجة البناء الروحي والاجتماعي في آن. هذه الحاجة لم يكن العلماء مؤهّلين لسدّها، فالفقهاء انغلقوا في دور حفَظَة الشريعة وضعُف تأثيرهم في المؤمنين، أمّا المتكلّمون فلا أثر لخطابهم في علاج أدواء النفس. ومن هنا برز شيوخ المتصوّفة ليحدثوا هذا التحوّل العميق الذي شهده التصوّف، نعني تطويره إلى مؤسسة تستجيب لحاجات جديدة للمجتمعات الإسلاميّة، فجعلوا نصب أعينهم تمكين النّاس من بناء علاقة شخصيّة حميمة مع الله ورسوله، واستطاعوا أن يوسّعوا دائرة المنتمين إلى جماعاتهم، فصار التصوّف منذ ذلك الحين قُطْبًا للإدماج الاجتماعي لا نظير له، حتّى لقد جاء زمن لا تَجِدُ فيه شخصا في أَيٍّ من البلاد الإسلاميّة لا ينتمي إلى طريقة من الطرق الصوفيّة أو يخضع لسلطانها بشكل أو بآخر"[45].

ويزيد ابن الطيب فيه قائلا: "لقد نهضت الطرق الصوفيّة منذ ظهورها إلى اليوم بأدوار على غاية من الأهميّة، وكان لها عظيم الأثر في شتّى المجالات، وهو ما يدلّ على خطورة المهام التي مارستها، وعلى شديد التصاقها بالمجتمع وشواغله. إنّ للطّرق الصوفيّة وظيفة اجتماعيّة تُفهم انطلاقا من تصوّر رسخ في التصوّف الطرُقي، فحواه أنّ الشيخ الصوفي يأخذ على عاتقه مسؤوليّة تلبية حاجات الجماعة، فذلك من مقتضيات الولاية قبل كلّ شيء. ولا يُتاح له ذلك إلاّ إذا تميّز بمجموعة من الصفات أهمها حماية النّاس، وتحمّل أعبائهم، وحلّ مشاكلهم، ورعاية مصالحهم. وإنّما أُنيطت به هذه المهامّ لاعتقادهم بقربه من الله، فالولاية بهذا الاعتبار تقتضي الرعاية والعناية والحماية"[46].

إن السلام النفسي و الأمن الروحي هو نقطة الارتكاز التي تعتمد عليها جميع أنواع الأمن الأخرى التي ينشدها الإنسان، ولا يتأتى الأمن الروحي إلا بمعرفة الإنسان لنفسه، ومعرفة الاختلالات الذاتية ومحاولة معالجتها. فالتربية الروحية تتصدى لجوهر الإنسان ولبه، وتزكية النفس وإصلاحها، وترتقي بالنفس من أمارة بالسوء إلى نفس لوامة إلى نفس مطمئنة، فيصبح الإنسان بذلك متوازنا، متكاملا، فاعلا ونافعا، متواصلا، منفتحا على عصره، قادرا على إرساء قواعد السلم والسلام: إنه سلم لساني، أخلاقي، سلم في العلاقات، سلم في العواطف والقلوب؛ فالتصوف يساهم في إشاعة قيم المحبة والرحمة وحسن التعايش والتواصل مع الحضارات والأديان، فتنعم بوافر الأمن والأمان.

إن الإنسان المعاصر يحتاج السلام النفسي و الأمن الروحي أكثر من الأمن الحضاري و الاجتماعي في الأزمات والحروب والمآسي الإنسانية التي يعيشها اليوم العالم المعاصر.فالإنسان في حاجة ملحة إلى الثقافة المتصوفة في عصر طغت فيه المادة على الروح، وهاجمت علينا الفتن من كل حدب وصوب. ولا يمكن أمن حضاري بغير أمن روحي ولا أمن روحي بغير أخلاق ولا أخلاق بغير دين، لأن الدين في أسمى معانيه خلق، ولا دين إلا بالتكامل بين الروح

والجسد وبين العقل والقلب وبين الدنيا والآخرة، ولا يكون ذلك إلا بالتكامل والتوازن. فالساحة إذا خلت من التصوف ملئت بالتطرف والبئوسة والإرهاب والتدمير.

إن الأمن الروحي هو الناهض الحقيقي بالحضارات-- والحضارة الحقيقية هي التي تجمع بين المدنية والروح-- فالمطلوب هو التطبيق الجاد للتصوف، لأن الأمة اليوم في حاجة لتربية ربانية أخلاقية روحية ترنو إلى الإحسان، وتدعو إلى البناء والفداء والتضحية في كل حين، وفي خدمة الخلق أجمعين. أن التصوف ضرورة إنسانية ويقظة دائمة تدعو إلى التوافق بين المادة والروح حتى تتجسد الصوفية بمعناها الحقيقي وتسهم في إيجاد روح ناهضة بالحيوية ورؤية فاعلة تنطلق من المفاهيم الأصيلة للإسلام.

إن التصوف الحقيقي يُصلح بين الناس بدون تمييز المذهب والعرق ولا يفسد، ويوحد ولا يفرق، ويوجه الناس إلى الإخلاص لله تعالى في كل أعمالها، ويعمل على تحقيق العدل ويجسّد الحب في الله بين الناس ويرسخ التقوى في النفوس للتحلي بالعفاف والحياء والسعي إلى الخيرات. أن التصوف له دور محوري في تقريب الإنسان فهو الذي يغرس في المجتمع الإنساني مكارم التوادّ والتراحم والمحبة والتآلف وحسن التعايش، وهذه القيم تأتي بالسكينة والاستقرار والسلم والسلام، وهذه أهم مقومات الأمن الاجتماعي والحضاري.

الهوامش والمصادر

1. بدوي، عبدالرحمن،دكتور: تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني، ط:2، وكالة المطبوعات، الكويت، 1993م، ص 15.
2. نيكلسون، الصوفية في الإسلام، ترجمة: نور الدين شريبة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1951م، ص 29.
3. الطوسي،السراج،أبو نصر: اللمع في التصوف، تحقيق وتخريج: د. عبدا الحليم محمود وطه عبدالباقي سرور، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1960م، ص 40-41.
4. المرجع السابق، ص: 41
5. بدوي، عبدالرحمن،دكتور: تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني، ص89.
6. القشيري ،عبد الكريم بن هوازن: الرسالة القشيرية، تحقيق معروف زريق وعبد الحميد بلطه جي، بيروت، دار الجيل، 1990، ص: 280
7. السلمي، أبو عبدالرحمن : طبقات الصوفية، تحقيق: نور الدين شريبة، ط:3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1986م، ص 19.
8. المرجع السابق، ص: 91
9. السهروردي، شهاب الدين: عوارف المعارف،دارالكتب العلمية، بيروت، ص: 81.
10. القشيري: الرسالة القشيرية، ص 282.
11. السلمي، أبو عبدالرحمن:طبقات الصوفية، ص 340.
12. القشيري:الرسالة القشيرية، ص 280.
13. البيروني، تحقيق: ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مطبعة مجلس المعارف بحيدر آباد الدكن، الهند، 1958م، ص: 25.
14. الطوسي،السراج،أبو نصر: اللمع في التصوف، ص: 21
15. ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: درويش الجويدي، ط:1، المكتبة العصرية، بيروت، 1995م، ص 21.
16. القشيري:الرسالة القشيرية، ص 430.
17. المرجع السابق، ص 433

18. المرجع السابق، ص 428.
19. الجرجاني، الشريف:التعريفات، دار الكتب العلمية بيروت، 1403هـ، 37/1
20. الزَّبيدي،مرتضى:تاج العرس، دار الهداية، جزر(أ م ن)
21. سورة البقرة، الآية: 125
22. سورة إبراهيم، الآية: 35
23. سورة آل عمران، الآية: 97
24. سورة فصلت، الآية: 40
25. سورة يوسف، الآية: 99
26. سورة النور، الآية: 55
27. سورة النحل، الآية: 112
28. التركي، عبد الله بن عبد المحسن: الأمن في حياة الناس وأهميته في الإسلام، وزارة الأوقاف السعودية، ص: 16
29. ابن منظور: لسان العرب، 291/12
30. البخاري: الصحيح، رقم الحديث:6011، المسلم: الصحيح، رقم الحديث:2586 سورة المائدة، الآية: 2
31. أحمد غاني: دور الطرق الصوفية فى تعزيز السلام الإجتماعي، ص:4
32. المرجع السابق، ص:5
33. نيكولسون: في التصوّف الإسلامي وتاريخه، ص:46
34. القشيري، الرسالة القشيرية، ص280
35. محمد بن الطيب: مسؤولية النخب الدينية والثقافية في الحفاظ على سلم المجتمعات وتضامنها،مجلة التفاهم، عدد42، شتاء 1434هـ، ص:103
36. المرجع السابق، ص:105
37. المرجع السابق، ص:106
38. المرجع السابق، ص:107
39. هادي العلوي، مدارات صوفيّة، ط1، دمشق، دار المدى، 1997م، ص:186
40. المرجع السابق، ، ص187
41. المرجع السابق، ص: 185
42. المرجع السابق، ص: 186

43. أبو العرب القيرواني، طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق: علي الشابي، تونس، الدار التونسيّة للنشر، 1968،ص:134
44. محمد بن الطيب: مسؤولية النخب الدينية والثقافية في الحفاظ على سلم المجتمعات وتضامنها، ص:108
45. المرجع السابق، ص:110

*_*_*